ألبير كامي... من العبث إلى التمرّد

أ. برابح عمر
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

الملخّص: نحاول من خلال دراستنا هذه؛ البحث في مضمون فلسفة العبث والتمرد عند ألبير كامي. فإذا تجاوزنا الخلاف بين مؤرخي الفكر الغربي حول تصنيف ألبير كامي، أهو أديب أم فيلسوف؟ فإنّنا سنكون أمام فكر يحاول أن يقرأ الواقع الغربي المعاصر، قراءة من خلالها يتجه الفيلسوف إلى البحث عن حلّ لأزمات الإنسان الغربي، الذي أعوزته قيم عصر التنوير عن حل مشكلاته المعاصرة. بمثل هذا المنطق، فكّر ألبير كامي في قيم أخلاقية جديدة، يمكن إسقاطها على مجال السياسة، وعلى مجالات الحياة الأخرى في محاولة لتجاوز حالة الأزمة.

الكلمات المفتاحية: كامي، العبث، التمرد، الثورة، الجزائر.

Abstract : :

We are trying through this study ; to search into the content of the philosophy of absurdity and rebellion when Albert Camus . If we passed the dispute between historians of Western thought about the classification of Albert Camus , is he a writer or a philosopher ? We will be in front of the thought of trying to read the Western contemporary reality , read through them heading philosopher to search for a solution to the crises of occidental man , who Enlightenment values for solving contemporary problems. Such logic, the thought of Albert Camus in a new moral values , can be dropped on the field of politics , and other areas of life in a bid to overcome the crisis.

The keywords:Camus, absurdity, rebellion, revolution, Algeria.

تمهيد:

إذا كانت الفلسفة الغربية المعاصرة أعادت تأسيس مفهوم الإنسان من خلال مذاهبها ومناهجها المتعدّدة، فإن هذا قد أعاد طرح الكثير من المفاهيم المتعلقة بالوجود الإنساني، ولعل من أهمّها المفاهيم الأخلاقية.

ومن بين المذاهب الفلسفية المعاصرة التي أعادت طرح المشكلات الأخلاقية وامتداداتها الإنسانية، نجد المذهب الوجودي الذي انتشر كمذهب فكري نتيجة سياق سياسي، اجتماعي واقتصادي عايشته أوربا مع نهاية القرن التاسع عشر[1]. فالفلسفة الوجودية وضعت نقطة النهاية للفلسفة المثالية المزيفة كما يسمّيها مؤرّخ الفلسفة إميل برهيي، سواء في نسختها الفرنسية التي تبنّاها ديكارت التي اعتقدت أن مبدأ الميتافزيقا هي معرفة الإنسان لنفسه، أو كما يسميها هو"مقولة الكوجيتو"، أو في نسختها الألمانية التي رفع لواءها هيغل الذي اعتقد أن الميتافزيقا تتجه نحو الفكرة المطلقة. وثبت لاحقا إفلاس هذه الفلسفات التي اعتبرت في وقتها وسياقها أفكاراً تنويريةً. وإذا كُنّا نُجْمع أن فلاسفة المذهب الوجودي قد أسسوا مذهبهم على أساس واحد هو أن وجود الإنسان سابقٌ عن ماهيته، فإنهم يختلفون في كيفية تحقّق هذه الماهية

وعلاقتها ببقية الماهيات. ومن بين فلاسفة المذهب الوجودي نجد الفيلسوف الفرنسي **ألبير كامي**(Albert Camus1913-1960).

فكيف فلسف **كامي** الأخلاق؟ وهل تعبّر فلسفته الأخلاقية عن حلول لإشكاليات الواقع أم أنها دليل على تأزم هذا الواقع؟ أو على الأحرى: هل قيم العبث والتمرد والحرية تمثّل تجاوزاً لقيم التنوير أم أنّها امتداد لها في شكل معاصر؟

1- العبث والتمرد... أو إعادة تأسيس القيم الأخلاقية:

تقوم فلسفة ألبير كامي الأخلاقية على أساسين متلازمين هما العبث والتمرد.

-العبث: الكلمة التي ترادف العبث في اللغة الفرنسية هي (Absurde) وهي ترادف المُحال والمستحيل، و(Absurdité) هي الاستحالة والسخافة ومنافاة العقل"[2]. أما إذا بحثنا في الدلالة الفلسفية، "فنحن نفهم من هذه الكلمة كل ما يتعارض مع قوانين المنطق، فالفكرة المحالة هي فكرة لا سبيل إلى التوفيق بين عناصرها، والحكم المحال هو الحكم الذي يتضمن غلطا ينتهي به بالضرورة إلى نتيجة باطلة ويكشف عن الفساد في بنائه الصوري"[3]. فقد جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا: "العبث ارتكاب أمر غير معلوم الفائدة، وقيل كما ليس فيه غرض صحيح لفاعله...العبث فعلٌ لا تترتب عليه فائدة أصلاً، أو فعلٌ لا يترتب عليه في اعتقاد الفاعل فائدةٌ، أو يترتب عليه فائدة لكنها لا يُعتدُّ بها في نظر الفاعلِ. وإذا فعل المرء فعلاً لا يترتبُ عليه فائدةٌ، أو ليس فيه غرضٌ صحيحٌ قيل أنه يفعل ذلك عبثاً... فالعبث إذن هو الباطل الذي لا أساس له، و لا نتيجة له، ولا نفع فيه"[4].

وإذا نظرنا إلى ما يُشكِّل مقولة العبث عند **كامي** فإننا سنقف عند مجموعة من الأحداث، فقد ولد في الجزائر، وبعد مولده بعام اندلعت الحرب العالمية الأولـــى، وقتل في إحدى معاركها والده، فاضطرت والدته الإسبانية إلى العمل في بيوت الأغنياء قصد سد أربعة أفواه جائعة: أختها الخرساء، أمها العجوز أي جدة ألبير، شقيق ألبير وألبير نفسه. وفي الثانوية يتفجر وعيه الفلسفي، فيلاحظ الفرق الشاسع بين التلاميذ الموسرين والتلاميذ الفقراء. وبعد تخرجه يعيش متقلبا بين مجموعة من الوظائف و الأعمال، فقد عمل حارس مرمى في لعبة كرة القدم، وصحافيا، وكان قبلها قد انضم على الحزب الشيوعي اليساري، إلى أن تألّق اسمُه عالمياً بأن حصل على جائزة نوبل للأدب عام 1957. إلا أن المنية اختطفته بعد ثلاث سنوات في حادث سيارة.

إن الوقائع التي عايشها الفيلسوف في صباه أو في مراهقته وحتى في أوج شبابه هي التي ساهمت في صناعة اتجاهه الفلسفي. "لقد قُذف بألبير كامي وسط صراعات العصر، وهو عصر مزقه التناقض، وانفصلت فيه السياسة عن الأخلاق، والقيم عن المجتمع، والفكر عن الحياة، وبالتالي بات العصر يؤمن بموت القيم التي تعتبر بمثابة الوسيط بين الله والإنسان"[5].

وتظهر مقولة العبث كأساس للأخلاق الكاموية، في مؤلفين مشهورين، الأول هو "الغريب"(L’étranger)الصادر عام 1939، والثّاني "أسطورة سيزيف" (Mythe de Sysiphe) الصادر عام 1941. في رواية "الغريب"، يجسّد "ميرسو" دور الإنسان العبثي، الذي لا يهتمّ للموت، ففي بداية الرّواية نقرأ على لسانه:" اليوم، ماتت أمي. أو ربما ماتت أمس، لست أدري"[6]. وتستمر الصورة العبثية للسلوك والتفكير مع هذه الشخصية المحورية، فقد قضى الليل مع جثمان

أُمه في إحدى الصالات، وشغله شكل الصالة والإنارة فيها عن التفكير بأمه. بل إنّه أخرج سيجارة ودخّن وهو شبه سعيدٍ لأنّ أُمّه لن تنهره - كعادتها - عن التدخين. وتظهر قمة العبثية عندما يقتل "عربياً"، ويتصور أنه سيدخل السّجن ويخرج بعد أيام، ولكن يبدوا أن القضاء يأخذ مجراه، فيحكم عليه بالإعدام، "ولكي أحسّني أكثر توحّداً، كان يبقى لي أن أتمنّى أن يكون هناك كثيرٌ من المُشاهدين يوم تنفيذ الإعدام بي. وأن يستقبلوني بصرخات مليئة بالحِقد والكراهية"[7]. وقبل أن يعدم، يرفض أن يواجه الله في صورة الكاهن، "فليس لديّ ما أقوله له، وليست بي رغبة في الكلام، وسوف أراه جيدا في وقت مبكر بعض الشيء"[8].

أما في "أسطورة سيزيف" وهو مؤلف فلسفي صريح، فيوضح **كامي** فلسفته عن العبث ويدافع عنها، بل ويتجه إلى نقد ورفض كل من يرى أن الوجود معقول. وسيزيف هو شخصية أسطورية اعتمد عليها **كامي** من أجل وصف حالة الإنسان في الوجود. "وسيزيف كان أعقل الناس، وقضت عليه الآلهة بان يستمر أبداً في إصعاد صخرة إلى قمة الجبل لا تلبث بمجرد وصولها على القمة أن تسقط من تلقاء نفسها فيضطر سيزيف على إصعادها من جديد... ويقال أنه عوقب بهذا العقاب لأنه استخف بالآلهة وأفشى أسرارها"[9].

إنّ سيزيف هو الإنسان في هذا الوجود. هو شقيٌّ وشقاؤه بلا حدود، ولذلك يستمرُّ عذابه بلا انقطاع عن طريق إلزامه بالقيام بعمل غير مُجْد. "فلماذا يقوم الإنسان بهذا العمل اللاّمجدي طيلة حياته التي تنتهي بالموت؟ وما هو الهدف من وجود الإنسان في الحياة؟ ولماذا أتى؟ وماذا يريد؟ ولماذا يموت؟ العالم إذن غير معقول في نظر **كامو**"[10].

لقد أُلقي بالإنسان في هذا الوجود دون أن يستشار. فحالته هي حالة سيزيف الذي يعاني الرتابة والملل دون أي غاية. هو يستيقظ صباحا، يستقل حافلة العمل طيلة أيام الأسبوع، في الليل ينام، وهكذا دواليك، في صورة آلية تمثل السلوك البشري. إنّ هذه الآلية لا تكْمنُ خارج الإنسان، بلْ إنّها ماثلة في نفسه، فهي مرتبطة بالزمن الذي يعتبر عدوّا لدودا للإنسان عند الفلاسفة الوجوديين، لأنه يقف دون تحقيق مشاريعنا، ويمنعنا من تقرير مصائرنا.

وعند قراءة "**أسطورة سيزيف**"، يستوقفنا في بدايته نقدٌ لاذعٌ للفلسفة، وذلك باسم الوجود. ولكنّه لا يسأل كما تساءل الفلاسفة اليونانيين القدماء عن أصل الوجود، بل إنّ مشكلة الماهية والمصير لا تعنيه، فمشكلته هي مشكلة الوجود والمعنى. هل تستحقّ الحياة أن تُحيا؟ لمَ يعيش الإنسان؟" هناك مشكلةٌ فلسفية هامة وحيدة، هي الانتحار. فالحكم بأن الحياة تستحق أن تُعاشُ، يَسْمُوا على منزلة الجواب على السؤال الأساسي في الفلسفة. وكل المسائل الباقية- هل إنّ للعالم ثلاثة أبعاد أم لا، هل إن للذهن تسعة أصناف أم إثني عشر صنفا - تأتي بعد ذلك. فهذه هي لعب، وعلى المرء أن يجيب أوّلاً"[11].

وإذا سألنا أنفسنا: لماذا مشكلة الانتحار هي أخطر مشكلات الإنسان وأكثرها أهمية؟ فقد رفض **كامي** أن يضع أسئلة ميتافيزيقية خالصة، إذ أنها في نظره أسئلة لا حل لها ولا سبيل للإجابة عنها. "إنني لأسأل نفسي، كيف أستطيع أن أحكم بأن هذه لمسألة هي أهم من تلك، وأجيب بأن المرء يحكم بواسطة الفعاليات التي تستتبعها المسألة. ولم أر واحدا مات من أجل الكينونة. فغاليلو، الذي عرف حقيقة علمية ذات أهمية عظيمة، تخلى عنها بكل سهولة في اللحظة التي هددت فيها حياته. وبمعنى من المعاني فلم تكن تلك الحقيقة لتستحق المشنقة، فكون الأرض تدور حول الشمس أو الشمس تدور حول الأرض هو من الأمور التي تتصف بأعمق اللاّإكتراث"[12].

ولكن، لماذا يرفض **كامي** الانتحار؟ إنّ السبب هو أن انتحار الجسد سيؤدي إلى إلغاء إشكال العبث كما يقول **كامي**. هو قتل للوعي لأن تجربة العبث تبقى متوقفة على طرفين: الوعي من جهة، والعبث من جهة أخرى. إذا أدرك الإنسان أن وجوده بلا معنى فلا ينبغي له إلغاؤه بالقضاء على جسده، فما هو الحل إذن؟ الحل يكمن في التشبث بالحياة، بالعيش. وإذا سألت **كامي**: لماذا تصرُّ على بقاء العبث؟ فسيجيب: إن ذلك من أجل الشرف، فهو يحترم قواعد اللعبة العبثية التي فرضت عليه. ونصل إذن إلى أن الوعي بالعبث يؤكد الوجود ولا يلغيه، فهو يولد رغبة عارمة في الحياة الدنيوية دون اكتراث بالحياة الأخروية التي لا يعبأ بها.

وإذا كان الانتحار الجسدي ليس حلا للعبث، فما هو الحل إذن؟ أيكون الحل في أن نأمل بوجود عالم أفضل؟ إن **كامي** لا يعبأ بهذه العوالم، فلا معنى للأمل ولكنه يستدرك أن انعدام الأمل لا يعني بالضرورة اليأس، وتقبل ما هو آني، تقبّل العبث بما يحمله من قهر. لقد أعجب **كامي** بالفيلسوف كيركغارد (1813 - 1855)، بل إنه كان يُكنُّ له كل معاني التقدير والاحترام والحب، لأنّه كان أوّل من أحسّ بالفزع من عبثية الوجود وأوّل من عاشها وعبَّر عنها من خلال مؤلّفه الشهير"إمّا ..أو". إلا أن العبث الذي عبَّر عنه كيركغارد يأخذ معنى دينياً يختلف عن العبث الكاموي الذي يرفض الدين.

إنّ المخرج من أزمة العبث إذن هي أن نحافظ على علاقة التوتر الموجودة بين الطرفين، الإنسان والعبث. إنّ الكاموية تتأرجح بين تشاؤمية مطلقة أساسها اللامعقولية والعيش في كنف اليأس، الذي يرفض أن يكون غد الإنسان فاتحة عهد جديد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يلح **كامي** على ضرورة اعتبار الإنسان ونموذجه "سيزيف" سعيدا، رغم أنه مثقل بهذا الثقل الميتافيزيقي الذي يسميه **كامي** "العبث"، الذي "يحمله على التَّجرُّد كُلِّ أملٍ"[13]. ولذلك حقَّ القول في **كامي**: "مات عبثاً، وهو الفيلسوفُ الَّذي عاش طوال حياته القصيرة ينادي بفلسفة العبث"[14].

-التمرّد: مقولة "التمرد" هي المقولة الفلسفية الثانية عند **كامي**، حتى أنّه أعدّ كتابا في موضوع هذه المقولة هو "الإنسان المتمرد" الذي وضع مادّته سنة 1950 ونشر عام 1951.

وإذا ما بحثنا في الدلالة اللغوية لمصطلح التمرد (Révolte) فإنه بوجه عام يفيد العصيان الذي يقوم على مواجهة حالة معينة عن طريق العنف. ففي اللغة الفرنسية فإن التمرد révolte مشتق من اللفظ الإيطالي rivoltare ويعني التغيير أو العودة، وهذا يعني أن التمرد يعني في الاصطلاح اللغوي الفرنسي إعادة الأوضاع إلى غير ما كانت عليه. أما في الاصطلاح اللغوي العربي، فنقرأ في لسان العرب: "مَرَدَ: المارِدُ: العاتي. مرد على الأمر، بالضم مرد، مُرودا و مُرادة، فهو مَارد و مُريد، وتمرَّد: أقْبَل وعَتَا، وتأويل المرود أن يبلغ الغاية التي تحرج من جملة ما عليه ذلك الصنف. والمِرّيد: الشديد المرادة مثل: الخمّير والسّكّير وفي حديث العِرْبَاض: وكان صاحب خيْبَر رجُلاً مارِداً مُنْكراً، المارد من الرجال: العاتي الشديد، وأصله من مردة الجن والشياطين، ومنه حديث رمضان وتصفد فيه مردة الشياطين، جمع مارد. والمرود على الشيء: المرون عليه. ومرد على الكلام أي مرن عليه لا يعبأ به. قال الله تعالى: (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق). قال الفراء: يريد مرنوا عليه وجربوا كقولك تمردوا. وقال بن الأعرابي: المرْدُ التطاول بالكبر والمعاصي، ومنه قوله: مردوا على النفاق أي تطاولوا"[15]. فمصطلح التمرد يعني الخروج عن المألوف وتجاوز الشرائع والأعراف والقوانين.

وإذا كان العبث هو المقولة الأساسية في فلسفة **كامي** الأخلاقية، وهو شبيه بمقولة الشك الديكارتي التي بنى على أساسها ديكارت فلسفته العقلية، فإن التمرد هو النتيجة المترتبة عن هذا العبث. فكما رأينا سابقا يرفض كامي الاستسلام

لمقتضيات العبث، عن طريق الانتحار في شكليه الجسدي والفلسفي. يرفض الانتحار لأنَّ الانتحار يعقِّد المشكلة ولا يحلُّها. "ومن هنا كان انبثاق التمرد في فلسفة **ألبير كامي**، فالفكر الذي أدَّى به إلى العبث كان يفترض أن يؤدِّي به إلى التمرُّدِ في وجه هذا العبث نفسه"[16].

لقد أعلن **كامي** عن تمرّده في كتابه "الإنسان المتمرِّد" (L'homme révolté) الذي صدر في عام 1951 مُؤسّسا كوجيتو جديدا هو الكوجيتو الكاموي:" أنا أتمرَّد إذن أنا موجود". يقول : "لن نستشيط غيظاً لذلك هَهُنا. فهدف الدراسة، ونكرِّر القول، هو قبول واقع الحال، ونعني الجريمة المنطقية، وأن نفحص مبرِّراتها: إنَّني أبذل جهدي هذا في سبيل فهْم زماني. لعلَّنا نَعْتبر أنَّ عصراً شرَّد أو استعبد أو قتل سبعين مليون نسمة خلال خمسين عاما، يستدعي فقط وقبْل كل شيء أن يحاكم"[17].

وفي هذا المستوى، يميِّز **كامي** بين شكلين من التمرُّد: التمرُّد باعتباره تجربة شخصية أو ما يسمِّيه التمرُّد الميتافيزيقي، والتمرُّد على وضع الإنسان الاجتماعي باعتباره عبداً، أوْ ما يسمِّيه هو بالتمرُّد التاريخي، والتمرد الميتافيزيقي هو فعل إنساني ينصب على الواقع من أجل إعادة أجزائه المتفرّقة إلى الإلتئام، و"...الثّائر الميتافيزيقي يثور على عالم ممزّق كي يردّه إلى الوحدة: إنّه يعارض مبدأ الظلم المتفشي في العالم بمبدأ العدل القائم في نفسه. وهو لا يريد في البدء غير رفع التناقض الموجود في الدنيا وإشاعة العدل بين النّاسِ جميعاً إن استطاع..."[18]. وأوّل ثائرٍ ميتافيزيقي عند كامي هو إبليس فقد ثار على الأمر الإلهي بالسّجود، معتبراً جنسه أفضل من الجنس البشري. وفي القراءة التاريخية للتمرد الميتافيزيقي، يستعرض مجموعة من الثوار كبرومثيوس الثائر على زيوس، ويعتبر "الماركي دي صاد" واحدا من أكبر الثوار الميتافيزيقيين، وأنصار النزعة الرومنسية، وكذلك دوستويفسكي الكاتب الروسي الذي يمثل المدرسة الواقعية النقدية، ومن الفلاسفة الذين ثاروا ميتافيزيقيا، شترنر ونيتشه، فالأول أراد أن يجعل الأحكام تابعة للفرد، والثاني أعلن موت الإله وظهور العدمية التي تنتصر للإنسان الأعلى .

هذا عن التمرد الميتافيزيقي، أما التمرد التاريخي أو الثورة فإن كامي يرفضه من خلال استقراءه للتاريخ. فموقفه إزاء الثورات والثوريين، على اختلاف منابعهم ونزعاتهم موقف تشاؤمي، فهو يلاحظ أنه على مدى القرنين السابقين حاول أناس أن يجسدوا الآمال الثورية في الحرية، إلا أن محاولاتهم باءت كلها بالفشل، بل وأكثر من ذلك، إن هذه الثورات لم تولِّد إلا الإرهاب والطغيان. إن هذا الرفض بسبب ما لاحظه كامي على الثوار الذين يتحولون بمجرد وصولهم إلى الحكم إلى طغاة، ومتغطرسين. فالثورة الفرنسية التي اندلعت سنة 1789، تحاول أن تطبّق نظرية روسو السياسية في نشأة نظام الحكم، فهي دين جديد له مبادئ جديدة قائمة على تأليه الشعب واتفاق إرادة الطبيعة مع إرادة الشعب، والمبادئ التي يجب أن تحكم المجتمع هي: الحق والعدل، والعقل والحرية، ولكنها ثورة أقصت السلطة الإلهية، إنها جريمة "والجريمة عنده هي دليل على التطرُّف الذي يصيب الإنسان عندما تتحوَّل روح التمرُّد من حالة ذهنية إلى ثورة سياسية"[19]، وذلك رغم اعترافه أنّ " العظام نهضت لدى سماع صوت الحرية الفرنسية، إنها تشهد ضد قرون الاضطهاد والموت، وتنبئ بتجدّد الطبيعة البشرية وحياة الأمم"[20].ولا يستثني من وصف الثورات المعاصرة بالجرائم، فالثورة الفوضوية عام 1905 فلسفها باكونين، والبلشفية وضع نواتها ماركس وقامت عام 1917، ومهما كانت الأهداف نبيلة من وراء الثورتين إلا أنهما لا تختلفان عن بقية الثورات، من خلال بروز مظاهر التعذيب

والإرهاب وتواري الحرية الفردية. وأدّى هذا الموقف إلى إحداث القطيعة بين كامي وصديقه الفيلسوف جان بول سارتر.

2- موقفه من عقوبة الإعدام : تظهر الإرهاصات الأولى لموقف **كامي** من عقوبة الإعدام في رواية الغريب، التي يصوّر من خلالها لامبالاة (ميرسو) بالحكم بالإعدام الذي صدر في حقّه بسبب اعترافه بقتل العربي، وكذلك في مُؤلّفه الذي أحدث ثورة في الفكر الفلسفي والسياسي المعاصر "الإنسان المتمرّد"، من خلال رفضه للثورات التي تنتهي بالمحاكمات المفضية إلى إعدام رموز السلطات السياسية والعسكرية السابقة.

وقد قدم **كامي** بحثا ودراسة كاملة عن أحكام قوانين الإعدام من الناحية الإنسانية لا من الناحية القانونية. وقد ضم **كامي** صوته إلى صوت آرثر كوستلر الصحفي الإنجليزي الذي شن في بريطانيا حملة صحفية مطالبا بإلغاء حكم الإعدام .

لخّص **كامي** بحثه في كتاب "المقصلة"(La guilloutine) الصادر عام 1957. فيذكر حادثة قتل ترويها والدته، فقد قتل أحد العمال المزارعين عائلة من المزارعين مع أطفالها بعد سرقتهم، فألقي عليه القبض ونفذ فيه حكم الإعدام بقطع الرأس، وقد استنكر والد كامي هذا الفعل - خاصة قتل الأطفال -، فأراد أن يحضر تنفيذ الحكم، وتروي والدة كامي أن الوالد عاد في مساء ذلك اليوم، ولم يرْوِ شيئا ممّا رآه، فقد تمدّد على السرير وأخذ يتقيّأ، وعوض التفكير بالأطفال الذين قتلوا، شرع الوالد يتحدث عن ذلك القاتل وجسمه الذي ألقي به على لوح خشبي لتقطع عنقه.

كانت هذه البداية التي حددت موقف **كامي** من الإعدام باعتباره جريمة وليس عقابا يلحق بالمجرم، فحتّى الصّحف أصبحت تتخفّى حين تُعلن عن تنفيذ حكم بالإعدام تحت عناوين مجازية، بالقول مثلا "المحكوم عليه فلان سدّد دينه للمجتمع" أو "العدالة أخذت حقها اليوم في الساعة كذا"، فالحكم بالإعدام هو أشبه بالأمراض الخطيرة مادام الحديث عنه بصوت مرتفع غير ممكن. ويشعر كامي بالاستحياء لأن فرنسا إلى جانب إسبانيا وبريطانيا لازالت تحتفظ بقوبة الإعدام كوسيلة ردع للمجرمين، وهذه الطريقة البدائية للردع بقيت بسبب اللامبالاة التي يتسم بها الرأي العام في فرنسا. الرأي العام يتميز بإغراقه في الخيال، فهو يصم آذانه عند إدانة الإنسان، ولكنه إذا رأى آلة الإعدام، وتلمسها، وسمع صوت الرأس وهو ينفصل عن الجسم، فحينئذ سيستنكر هذه الجريمة المضاعفة.

يصرّ **كامي** إذن على أن عقوبة الإعدام غير ضرورية، فهي أكثر من ذلك مضرة عظيم الضرر. فإذا أخذنا أنصار القصاص فإنهم يرون أن الرؤوس لا تقطع لمعاقبة أصحابها، بل لكي يقي المجتمع نفسه شر تكرار الجريمة، ولكننا نلاحظ " أنّ المجتمع نفسه لا يؤمن بالعبرة التي يتكلم عنها، وأنه لم يثبت أن عقوبة الموت قد جعلت قاتلا واحدا، مصمّماً على أن يكون قاتلاً، يعدل عن ذلك، وإن من الواضح أنه لم يعد لها أي تأثير، إن لم يكن تأثير إغراء على آلاف المجرمين، وإنها تشكل، من ناحية أخرى، مثالا كريها لا يمكن لأحد أن يعرف إلى ما ستؤدي نتائجه"[21].

فإذا كان المشرع الفرنسي يرغب في جعل الإعدام عبرة لمن لا يعتبر، فعليه إذن أن يقرر نصب آلة الإعدام في ساحة الكونكورد، على الساعة الثانية بعد الظهر، ودعوة الشعب إلى الحضور مع بث "احتفال الإعدام" على قنوات التلفزيون، كي يشاهده كل من كان غائبا، فلا يعقل أن يأخذ الناس العبرة من "جريمة قتل سرية" ترتكب ليلا في باحة

سجن! ويصف **كامي** عقوبة الإعدام وصفا قد يصدق عليه القول شر البلية ما يضحك: "هي تبدو لي فيما هي عليه، جراحة غليظة تجري في شروط تُجرّدها من كلّ ما يمكن أن يكون فيها من عبرةٍ"[22].

ويصف شعور المحكوم عليه: "إن ما يشعر به الإنسان في تلك اللحظة يتجاوز كلّ أخلاق. فلا للفضيلة، ولا للشجاعة، ولا للذكاء، ولا حتّى للبراءة من دورٍ تلعبه هنا. فالمجتمع يعود دفعة واحدة، إلى الأهوال البدائية..."[23]، بل إنّه يقارن بين اليونانيين القدماء، وهم يمثلون الحضارة الغربية في شروطها البدائية، والحضارة الغربية المعاصرة، فيلاحظ أن اليونانيين – رغم ما يقال عن عنفهم - كانوا أكثر تحضّراً فقد كانوا يخيّرون المحكوم بالإعدام بين الانتحار والإعدام. ويسترسل **كامي** في سرد مجموعة من الشهادات لمن عايشوا تنفيذ هذه (الجريمة)، فهم رغم عدم معارضتهم للعقوبة إلا أنهم يتّفقون على أنها عقوبة غير إنسانية، ويعتمد على الصحافي الإنجليزي كوستلر الذي بيّن أنه في بداية القرن العشرين، 170 مشنوقا من أصل 250 شهدوا أحكاما بالإعدام، وذلك في غياب إحصائيات تخص المجتمع الفرنسي بسبب السرية التي تُحاط بها أحكام الإعدام. وبدون شكٍّ، فإن الذي ينفّذ هذه العقوبة هو إنسان مختل، فهو يسمح لنفسه بأخذ ملابس المحكوم، بل إنه يجلس أياما متّكئا على كرسي، مرتديا قبّعته ومعطفه وهو ينتظر استدعاء آخر من وزارة العدل!

والمحكوم إذ هو ينتظر العقوبة فهو يشعر بأن المجتمع والدولة هما من يعاقبانه على جريمة ارتكبتها الدولة. **فكامي** يربط بين الجريمة وتعاطي الكحول، فالدولة التي صبت الكحول في رأس المحكوم عليه، هي نفسها التي تعاقبه.

إن المجتمع الفرنسي، بل العالمي يدين بالفضل إلى **ألبير كامي** بوصفه واحدا من الفلاسفة والمفكرين الذين دافعوا عن إلغاء عقوبة الإعدام. فقد تم إلغاء هذه العقوبة في فرنسا عام 1981، والفرنسيون يعترفون بفضل **كامي** وفكتور هوغو ورجل القانون روبير بادنتير في إلغاء هذه العقوبة.

وقد غدا الإتجاه نحو إلغاء هذه العقوبة مطلبا إنسانيا يذكّر برمزية الدفاع عن حقوق الإنسان. فقد اعتمدت الأمم المتحدة من خلال جمعيتها العامة القرار62/149 في ديسمبر 2007، الذي أعلن توصية بفرض حظر على تنفيذ أحكام الإعدام، وتبعا لذلك تبنت الجمعية البرلمانية لمنظمة الأمن والتعاون في أوربا في جويلية 2009 قرارا بحظر عقوبة الإعدام تمهيدا لإلغائها، وقد دعت الجمعية الولايات المتحدة الأمريكية وبيلاروسيا إلى تبني حظر فوري على تنفيذ أحكام الإعدام، كما دعت لاتفيا وكازاخستان إلى تعديل الأحكام النافذة التي تسمح بإعدام الأفراد. وفي 24 نوفمبر 2008 أعلنت المفوضية الإفريقية لحقوق الإنسان والشعوب في دورتها العادية التي عقدت في أبوجا بنيجيريا قرارا يدعو الدول الأطراف في الميثاق الإفريقي لحقوق الإنسان والشعوب إلى مراعاة إعلان وقف تنفيذ عقوبة الإعدام، وفي الجزائر لا يزال الجدل مستمرا حول بقاء هذه العقوبة أو إلغائها خصوصا بعد تفاقم ظاهرة اختطاف الأطفال وقتلهم، علما أن تنفيذها قد توقف منذ 1992.

يمكننا إذن أن نصل إلى نتيجة هي أن التأسيس المعاصر للقيم الأخلاقية عند **كامي** يمكن فهمه في سياقه التاريخي، فهو يتجاوز التأسيس الحديث القائم على قيمتي الحداثة والتنوير إلى قيمتي العبث والتمرّد، ذلك لأن العصر الذي عاشه **كامي** مثّل قمّة التهديد للوجود الإنساني، ولا يمكن إذن أن نفصل فلسفته الأخلاقية عن موقفه القانوني من عقوبة الإعدام، لأن هذا الموقف يعبّر عن انتصار للقيم الإنسانية.

الهوامش:

1- الفلسفة الوجودية ترتبط ببداية أفول نجم الأفكار التنويرية، وإعلان تراجع المرجعيات الفلسفية الحديثة التي حاولت بحث مشكلة المعرفة، وأهملت مشكلة الوجود الإنساني، فكان لابد من إعادة تأسيس فلسفة جديدة وضع مبادئها الأولى سورين كيركجورد (1813-1855). (لمزيد من الإطلاع، أنظر: عبد الرحمان بدوي: دراسات في الفلسفة الوجودية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1980).

2- المعجم فرنسي/ عربي، دار الكتب العلمية،بيروت لبنان ، ط4، 2006: ص 10.

3-عبد الغفار مكاوي،ألبير كامي: محاولة لدراسة فكره الفلسفي، دار المعارف بمصر، د ط، 1964 :ص 20 .

4 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، الجزءالثاني،(د ط ت)، لبنان، 1982: ص43.

5- جون كروكشانك : ألبير كامي وأدب التمرد، ترجمة هلال العشري، الهيئة المصرية العامَّة للكتاب،القاهرة مصر، د ط ، 1986: ص 7.

6- ألبير كامي: الغريب و قصص أخرى، ترجمة عايدة مطرجي إدريس، دار الآداب ، بيروت لبنان، ط4، 1990: ص9.

[7] - ألبير كامي، المصدر السابق: ص 105.

[8]- ألبير كامي، المصدر نفسه، ص 94.

9- عبد الرحمان بدوي: دراسات في الفلسفة الوجودية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1980 : ص 159 .

10- محمد يحياتن، مفهوم التمرُّد عند ألبير كامو و موقفه من الثورة الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، د ط، 1984 : ص 31.

[11]- ألبير كامي، أسطورة سيزيف، نقله إلى العربية أنيس زكي حسن، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، د ط،1983 :ص 11.

[12]-ألبير كامي، المصدر السابق : ص 12.

[13]- محمد يحياتن، المرجع السابق : ص 45.

[14]- جون كروكشانك، المرجع السابق : ص 50.

15- ابن منظور: لسان العرب، حققه و علق عليه ووضع حواشيه عامر احمد حيدر، راجعه: عبد المنعم خليل ابراهيم، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة و الجماعة،دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط 1، 2003: ص ص 490،491.

[16]- جون كروكشانك، المرجع السابق: ص 17.

17- ألبير كامي، الإنسان المتمرِّد، ترجمة نهاد رضا، منشورات عويدات بيروت/باريس، الطبعة الثالثة، 1983 : ص 8.

18- عبد الرحمان بدوي، المرجع نفسه: ص 222.

[19]- محمد يحياتن، المرجع نفسه : ص 69.

[20]-ألبير كامي، المصدر السابق: ص 149.

21- ألبير كامي، المقصلة، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، (د ط ت) :ص 15.

[22]- ألبير كامي، المصدر السابق: ص 22.

[23]- المصدر نفسه: ص 45.